إن الصعوبة التي في النحو هي حالة طارئة وخارجة عن طبيعته، انها متأتية من النحاة القدماء الذين زجوا فيه قضايا ومسائل هي أبعد ما تكون عن جوهر النحو، من أجل أن يتنافسوا فيما بينهم، ومن أجل أن يتباهوا بمقدرتهم العقلية الخارقة، ومن أجل أن يحتل اسمهم حيزاً في تاريخ النحو. ومتأتية أيضاً من الذين ألفوا في النحو على مر العصور حتى الذين الفوا في عصرنا لطلبة المدارس بأساليب معقدّة ملتوية، دفع ضريبتها الطالب الذي يندفع حباً في العربية إلى محاولة فهمها وإتقانها؛ فبدلاً من أن يبذل جهداً واحداً من أجل أن يفهم النحو صار يبذل جهدين اثنين: جهداً في فهم النص والقدرة على متابعة المؤلف الذي تصعب متابعته، وجهداً في فهم القضية النحوية.

وقد زاد الطين بلة أن الذين يتولون تدريس النحو الآن هم في معظمهم ليسوا على قدر المسؤولية الجسيمة التي يتحملونها فلا هم يفهمون النحو ولا هم بقادرين على أن يفهموه للأخرين.

لقد سئلت مرة ما الذي قدمته لطلابك خلال تدريسك للنحو في الجامعة مدة ثلاثة عشر عاماً فقلت يكفيني أنني غرست في نفوسهم أن النحو يسير، وأنه بالإمكان أن يفهم، ويكفيني أنني كنت أشعر وأنا أدرسهم بأنهم مرتاحون لطريقة عرض قضاياه ومرتاحون لأنهم يفهمون ما أشرحه وأوضحه من غير ملل أو انزعاج، وكنت ألمح في عيونهم الدهشة من أن النحو هو هكذا.

لقد دأبت في كل موضوع من مواضيع النحو ـ في هذا الكتاب ـ على أن أعرض قضاياه قضية تلو قضية عرضاً مباشراً بلغة واضحة مأنوسة محاولاً أن أمثل على كل قضية أو حكم بمثل واضح أو مثلين، مع اعراب أحدهما أو كليهما اعراباً يجعل الأمر واضحاً مفهوماً، ثم عملت على أن أختتم كل موضوع بشواهد تفصيلية على كل قضية من قضايا الموضوع معيناً الطالب على معرفة مواضع الشواهد بكتابتها بالخط الأسود حتى لا يعني الطالب نفسه في البحث عنها، وحتى لا يقع في الحيرة من معرفة هذه المواضع حيرة قد تنفره منها أو تبعده عن أن يتأملها.